كلمة الأب البروفسور جورج حبيقة

رئيس جامعة الروح القدس الكسليك

في مؤتمر "التقاعد: نهايةُ طريقٍ أم بدايتُه؟"

13 شباط 2018

يُسعدني، في هذه المناسبة، أن أقف كمسؤول عن مؤسسة تربوية جامعية عريقة، إلى جانب المؤسسة العسكرية بجناحيها: الجيش وقوى الأمن، وهي الحاضنة الأولى للكيان اللبناني، والساهرة على صونه من ذُلٍّ وهوان، وعلى أمن أفراده، لأشارك معها في البحث عن السبل الآيلة إلى تحويل فترة تقاعد العسكريين، من جيش وقوى أمن على السواء، إلى مرحلة تُقصي عنهم الشعور بأن الوطن استغنى عن خدماتهم، ولم يبقَ لهم من حطام الأرض سوى اجترار الذكريات، أو انتظار اتصال، أو ترصُّد حدث، ربما قد يجدّد الحاجة إليهم، ويعيدُهم إلى صلب حركية المجتمع حيث يستعيدون ولو لفترة وجيزة جزءا متواضعا من صخب الماضي. إن أمَرَّ شيء في التقاعد هو أن الشخص لن يحصل أبدا بعد الآن على أيام عطلة والتمتع بمذاقها بعد أيام ضانكة من العمل المضني. والأكثر إيلاما أيضا، على سبيل المزاح الرصين، هو تقاعد الزوج الذي يحوِّل عملَ الزوجة في البيت إلى دوامٍ كامل.

إن نظام التقاعد، في الواقع، ليس حكراً على المؤسسة العسكرية والأمنية، بل هو نظام يطول آلية العمل والخدمة في قطاعات عديدة في المجتمع. إنه بالواقع نهاية مرحلة وانطلاقة مرحلة جديدة وليس أبدا عبورا إلى الفراغ والاستقالة من المجتمع والتربع على عرش اللامسؤولية. ويحضرني كمسؤول الهاجس الذي ينتاب الموظّف، مهما علا شأنه، في لحظة فصله عن خدمته الوظيفية... وكم نخشى أن يكون الفصل بمثابة الجرح الانتروبولوجي الذي قد لا يتوفر له دواءٌ من خارج الصبر واستذكار الماضي، وربما الموت البطيء المتسلل على متن عقارب الساعة.

غير أنّ التقاعد في حياة العسكريين والأمنيين يختلف النظر إليه، فنكهته ومذاقه لا يُشبهان أيّ حالة تقاعدية أخرى، وذلك بسبب الصلة الوثيقة القائمة بين "إبن الدولة" والوطن في جميع أبعاده.

إن العسكري المتقاعد أو الأمني المتقاعد، يستنطقُ منظومةَ العلاقات التي تربطه بالأرض وبالإنسان، فهو في الأمس القريب كان اللواء، والعميد، والعقيد، والرائد، والرقيب، والمجنّد، تحت رأسه كوكبةٌ من النجوم التي سهر الليالي لإسقاطها على كتفيه، وعلى صدره "نياشينٌ" تقصُّ أسطورةَ استبسالِه، يدُه جاهزة على الزناد، عينه رادار استكشاف، فكره في إعمال متواصل، كلُّه في جهوزية قصوى لاستباق الفاجعة، للذود عن حياض الوطن... هو الوفاء، هو التضحية، هو الشرف...

وكذلك رجال قوى الأمن، منهم لا يعرفون ليلَهم من نهارهم، حضورُهم في الحياة الاجتماعية والوطنية ضمانةٌ للعدالة، والأمن، والاستقرار، إذ بفضل جهوزيتهم وتفانيهم، يعيش المجتمع بدون خوف يقضُّ مضجعَه، وتنطلق عجلة الاقتصاد في إنتاجية لا تستقيم خارج مساحات السلم والاستقرار والثقة بالآتي من الأيام.

هؤلاء الرجال، وبعد زمن معين تنضم إليهم النساء، بين ليلة وضحاها، تُخلَع عنهم وظيفتُهم، ويُشكرون على خدماتهم، ويُحرَّمُ عليهم ارتداءُ بِزتهم الرسمية بعد ولوج حقبة التقاعد.

فجأة تنتقل حياتُهم من كرّ وفرّ لا يني ولا يكلّ، إلى حياة عادية، هادئة حتى السكينة المملّة، وفي بعض الأحيان مجوّفة، تدور على ذاتها في دوامة رتيبة حتى التلاشي.

نحن اليوم معاً سنتبادل الأفكار بهدف إرساء قواعدَ حديثةٍ للتعاطي مع "إبن الدولة" المتقاعد، تقوم على الاستفادة القصوى من مهاراته وخبرته وإنتاجيته خدمةً للوطن والإنسانية.

وخيرُ مثال على ذلك، ما تفعله الدولة الفرنسية مع جنرالاتها الذين يتمُّ عامة تقاعدهم عند الثامنة والخمسين من عمرهم، وأحياناً قليلة، ولأسباب جداً ضرورية، عند الثانية والستين من عمرهم.

إنّ الدولة الفرنسية تؤمّن لجنرالاتها مراكز في حقول عديدة، كمستشارين، كباحثين، كمدرّبين في قطاعات عدّة... وهكذا تُعصمهم من التراخي والسأم ومن الانطواء على الذات.

قد نتمكن نحن اليوم، في العقود الأولى من الألفية الثالثة، أن نحدث تغييراً في مسلكية التقاعد العسكري والأمني.

في الحقيقة، إن نظام سنّ التقاعد، المعمولَ به في معظم دول العالم، بحاجة إلى إعادة النظر في مضمونه ومقوّماته، خاصة بعد التطوّر الهائل في مجال الطبّ الذي أسهم، إلى حدّ بعيد، في إطالة عمر الانسان، فسقط الحديثُ اليوم عن العمر الثالث، وشرعت الأوساط العلمية تتكلم عن العمر الرابع، وما أدراك به قريباً بالخامس؟؟

وإن كنا اليوم نتداول في قضية التقاعد وإبعاد شبح البطالة القاتلة، فهناك غدٌ إفتراضي آخر زاحف بآلاته "الروبوتية"، التي قد تلغي الحاجة إلى العسكر وإلى قوى الأمن. والإشكالية القادمة، وربما لن تكون بعيدة، ستكون في حرب آلات روبوتية مسبقة البرمجة ومتفوقة في الذكاء الاصطناعي، تفتك بشكل خارق، وتنفِّذ مهمات قتالية تتخطى طاقة التخيل، قد تحيل بالتالي أجيالا بأكملها من الطاقات الشبابية الواعدة إلى التقاعد الإلزامي والمبكر.

وفي ختام كلمتي، يطيب لي أن أوجّه إلى قيادة جيشنا وقوانا الأمنية الباسلة أسمى آيات الامتنان والدعم، مؤكدين لها أن جامعة الروح القدس الكسليك لن تألو جهدا في استنباط الطرائق الفعالة لتعزيز قدرات الجيش، كما فعلنا منذ فترة ليست بطويلة في حقل الغذاء الملائم للقوى المسلحة عبر حلقات تدريبية محبكة التماسك التسلسلي وذي طابع علمي رفيع. يسرني هنا أن أتقدم بعميق الشكر من قائد الجيش العماد جوزيف عون ومدير عام قوى الأمن الداخلي اللواء عماد عثمان ومدير عام أمن الدولة اللواء طوني صليبا ومدير عام الأمن العام اللواء عباس إبراهيم ومن جمعية حضارة ورئيسها المهندس إدمون شيخاني على التعاون الوثيق في تحضير هذا المؤتمر وإطلاقه. وأسوق شكرا خالصا إلى كلية الفلسفة والعلوم الإنسانية وعميدها الأب البروفسور جان رعيدي وإلى الدكتورة ميرنا مزوق رئيسة قسم العلوم الاجتماعية والدكتورة نادين زلاقط رئيسة قسم علم النفس وإلى جميع مدراء الحلقات الحوارية والمحاضرين الذين سيثرون مسألة

تقاعد العسكريين والأمنيين بمقاربات تجمع عمق التحليل إلى سعة الإحاطة. كما وأنني أتوجه بكلام امتناني إلى جميع وسائل الإعلام التي ستغطي وقائع هذا المؤتمر. وإلى كل واحد منكم شرفنا بحضوره ومشاركته الفاعلة، يطيب لي أن أقول شكرا جزيلا وإلى اللقاء بإذن الله في حلقات تثقيفية لاحقة. وشكرا على إصغائكم.